

الذات الأندلسية في مرآة المستشرقين الإسبان

أ. قرصاف عمّار

عضو وحدة البحث - تونس

- صورة عرب الأندلس في مرآة بعض المستشرقين الإسبان - ما أريد أن أشير إليه أن اهتمام الباحثين العرب من مشاركة ومغاربة بالأندلس داخل في إطار الاهتمام بالتاريخ العربي أي تاريخ الأنا أو تاريخ الذات ومن هنا يأتي الاصطدام الفكري بين الباحثين الإسبان والباحثين العرب حول الارتباط الأندلسي بإسبانيا أو بالعالم العربي المسلم حيث يعتبر كل واحد أن تاريخ الأندلس جزء من تاريخ هويته وأن الأندلسيين جزء من شعبه دون غيره وباعتباري باحثة عربية مسلمة أتناول هذا البحث من منظور أن تاريخ الأندلس هو جزء من تاريخنا وانطلاقاً من هذا الإشكال سأحدث عن دراسات المستشرقين الإسبان - باعتبارهم هم "الآخر" والأندلسي العربي هو "الأنا" - لتاريخ التواجد الإسلامي بالأندلس والتي تتفاوت من حيث الموضوعية والتجرد.

رغم أنّ المستشرقين الإسبان تناولوا تاريخ الأندلس انطلاقاً من تصوّراتهم للتاريخ وللثقافة التي تركزت على الذات الإسبانية وتمحورت حولها لذلك أضحت هذا التاريخ الأندلسي بالنسبة إليهم آخر غير تامّ الغيرية وهذه خاصية تميّز بها الاستشراق الإسباني.

وسوف نتناول هذه الدراسة تحليلاً ومناقشة موقفين إسبانيين متباعدين في علاقتهما بالحضارة الأندلسية.

وسنسى من خلال تقييم تصورات الاستشراق الإسباني للتجربة الأندلسية استرجاع جزء من الذات العربية الإسلامية عبر معرفة آخر ساهم في تكوينها كما ساهمت هي بدورها في تكوينه سواء اعترف بذلك أو لم يعترف.

1- الموقف الأول هو : الموقف المغرض الذي ينكر إسهام العرب المسلمين في حضارة الأندلس ويحاول تشويه الإسلام ويؤكد أن المسلمين كانوا متأثرين بالحضارة اللاتينية أكثر من كونهم مؤثرين وبالتالي فإن ثمانية قرون قضاهها العرب المسلمون بالأندلس لا تمثل حقبة ذات اعتبار في تاريخ الأمة الإسبانية.

2- الموقف الثاني وهو الموقف المعتدل / الحيادي / الموضوعي الذي يقرر أن إسبانيا بدون احتساب المرحلة الإسلامية تعتبر دولة عاطلة عن الأمجاد التاريخية.

مقدمة

إن درس التاريخ الأندلسي مهم كما كان هذا التاريخ مهما ولقد أصبح هذا التاريخ محل تنافس يتسابق إلى الفوز به كل من أصحاب الديانات السماوية الثلاث ويسعى النصرارى واليهود بكل وسيلة إلى إثبات أن لهم إلى جانب المسلمين - الفضل الأكبر في تكوين هذه الحضارة ومن الطبيعي أن يكون الإسبان الأكثر اهتماما بهذا التاريخ وهذه الحضارة من غيرهم.

ولعل ما يجعل حضارة الأندلس جديرة بأن تلقى اهتماما خاصا من الدارسين هو تعقدها ذلك أنها كانت تتألف من عناصر متعددة ومتباينة أشد التباين في أصولها البشرية والثقافية لكنها كانت متكاملة وقد ساهم كل ذلك في تكوين حضارة مستقلة ومتميزة لم تقتصر إلى الأصالة والإبداع مهما اقتبست واستعارت من الحضارة الإسلامية المشرقية وقد بدا ذلك الاستقلال والإسهام الأصيل في كثير من المجالات العلمية والفنية والعمرانية مما جعلها محط اهتمام الباحثين والمؤرخين من العرب والمستشرقين على السواء.

وفيما يتعلق بالمستشرقين الذين نود في مداخلتنا هذه تجلية معالم مختلف مواقفهم من التجربة الأندلسية فإننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض المستشرقين الإسبان ممن ينظر إليهم باعتبارهم ممثلين للحركة الأكثر اتساعا للإستشراق فقد أولوا اهتماما خاصا للحضارة الأندلسية وتاريخها وذلك لارتباطه بتاريخ أوروبا من جهة وبالعالم الإسلامي من جهة أخرى وقد اعتبروا هذا التاريخ جزء لا يتجزأ من تاريخ اسبانيا القومي خلال العصر الوسيط.

وان كنا قد أهملنا مواقف مستشرقين من جنسيات أخرى رغم طول باعهم وذراعهم في هذا المجال مثل الفرنسيين أمثال (ليفي بروفنسال وهنري بيرس)، أو الهولنديين (اينهارت دوزي) أو الأمريكيين (كسميت) فإن ذلك كان مقصودا حيث ومن خلال دراسات هؤلاء المستشرقين المنتمين إلى نفس الرقعة ونفس الأصول تكونت تصورات ورؤى مختلفة للتاريخ الأندلسي مما يطرح تساؤلات حول مدى تطابق تلك التصورات مع الواقع التاريخي الذي عرفته اسبانيا خلال ثمانية قرون من التواجد الإسلامي.

الهدف من هذا البحث هو تقديم صورة لتطور الفكر الاسباني تجاه الحقبة الأندلسية لأنه مما لا يمكن الشك فيه أن هذا الفكر قد تباين في نظرته من عصر إلى عصر وحدثت تطورات أدت إلى ظهور مدارس مختلفة يحاول كل منها أن يرسم صورة متباينة لتاريخ المسلمين في الأندلس والأمر الطيب في هذه المداخلة دحض رأي مستشرق اسباني برأي آخر ينتمي إلى نفس الجنس والرقعة

وكأننا بمستشرق يرد على مستشرق وليس عربي يرد على مستشرق : صراع بين الآخر حول الدّات.

وليس الهدف كما قال خليل أحمد خليل أن نكره أو أن نتجاهل الاستشراق مع مواقع التّذهب والتّسييس بل الهدف تمثله نقدًا لإلحاقه برحلة التحوّل العلائقيّ بين مداراة العوالم المعاصرة (1)

(1) الاستشراق : "مشكلة معرفة أو مشكلة الاعتراف بالآخر" مجلة الفكر العربي عدد 31 - 1983 - ص 51.

وهكذا ستعكس صورة الأنا متمثلة في حضارة الأندلس في مرآة الآخر
المستشرق الاسباني وتبين عن وجهين مختلفين.

فما هما هذان الوجهان المتباينان ؟

لقد جعل الماضي العربي الإسلامي من اسبانيا بلادا مختلفة عن البلاد
الأوروبية الأخرى كما جعل من تاريخها العام تاريخا إشكاليا نتيجة احتكام
الثقافات الثلاث.

- العربية الإسلامية.

- اللاتينية النصرانية.

- العبرية اليهودية.

ولعلنا نجد في سجل المستشرقين فرانسيسكو خافيير سيمونت
Francisco Javier Simonet وأمريكو كاسترو Américo castro تعبيرا عن
رؤيتها لهذا الماضي، فقد تزعم كل واحد منهما اتجاها خاصا به وبمن نحى
وينحو نحوه.

1- موقف فرانسيسكو خافيير سيمونت (1829-1897)، وهو أكبر ممثلي
المدرسة المتعصبة التي تنكر فضل الإسلام والمسلمين ودورهم في تكوين الفكر
الإنساني عامة والاسباني خاصة يصفه مصطفى الشكعة بقوله "إن سيمونت
مستشرق اسباني كاثوليكي شديد العصبية لقومه، بذئ اللسان، عميق الحقد على
الإسلام والمسلمين وتحمل كتاباته شحنة مكثفة من الكراهية الشديدة للإسلام
وحضارته مع إنكار كامل لمنجزات الحضارة العربية الرفيعة التي شهد بفضلها
أعداؤها قبل أصدقائها" (1)

(1) الشكعة (مصطفى) المغرب والأندلس : افاق اسلامية وحضارة انسانية ومباحث أدبية ط 1.
دار الكتاب المصري - القاهرة 1987 - ص 91

ولقد تجلت الروح العدائية عند سيمونيت في كتابه الذي ألفه عن المستعربين الأندلسيين ⁽¹⁾ المسمى في اسبانيا Historia de los mozarabes de Espagna ومن السهولة التعرف على الهدف من تأليف الكتاب بمجرد قراءة العنوان "تاريخ المستعربين في اسبانيا" ومن مطالعة أول سطورهِ وصفحاتهِ والتي حاول من خلالها أن يصيغ التاريخ الاسباني كله من خلال نشاط تلك المجموعة التي لو لا سماحة الإسلام لما عاشت محتفظة بدينها وعاداتها وتقاليدها رغم وجودها وسط المجتمع الإسلامي ومن ثم يمكن أن نستنتج بسهولة شدة أحكامه المسبقة على الإسلام والمسلمين وخاصة على فترة الوجود الإسلامي على أرض اسبانيا والذي يستخدم للدلالة عليه لفظ "السيطرة / الهيمنة Dominacion islamica". يقول في صدر الكتاب المشار إليه : "إن هدفنا كتابة تاريخ هؤلاء الاسبان الذين أخضعوا للإسلام والذين تمكنوا دون معاهدات تحميمهم وعلى مدى قرون طويلة من الاحتفاظ

بدينهم وبروحهم القومية وبالتقافة العريقة لاسبانيا الرومانية والقوطية والنصرانية وقاوموا بكل جلد وصلابة الكثير من التعذيب والاضطهاد والمطاردة وعظيم المصائب، وهم هؤلاء والذين من أجل ذلك كله استحقوا عاطر الثناء والمديح والإطراء واستحقوا أن نرفع الأيدي بالتحية والتقدير لهؤلاء الأبطال الأساتذة الشهداء الذين ساهموا بما قدموا في صياغة اسبانيا الجديدة وتقدمها". ⁽²⁾

لقد جاءت صورة المستعربين في كتابه مجمدة ومعظمة بدا فيها هؤلاء "حاملين ومؤتمرين على الحضارة الاسبانية الأصلية والقومية في مواجهة للغزاة المسلمين والخونة من بني جنسهم الذين اعتنقوا الديانة المحمدية ⁽³⁾".

وهكذا أراد المؤلف إنقاذ ما أمكن إنقاذه حسب زعمه - من تاريخ اسبانيا القومي فحاول جاهدا أن يعلي من شأن مستعربي اسبانيا وركز بالخصوص على مدى التأثير الحضاري الذي أحدثه أولئك في الفاتحين

(1) المستعربون : هم مجموعة النصاري التي عاشت في الأندلس وبقيت على دينها محتفظة ببعض تراثها اللغوي والحضاري ومكتسبة اللغة العربية والتقاليد الإسلامية.

2) Simonet. Historia de los mozarabes de Espagna. Madrid (1897-1903) page 1

(3) الشكعة : المغرب والأندلس ص 92

المسلمين ومحافظتهم على أصالتهم الثقافية وعدم اندماجهم مع المسلمين. فكان لهم الفضل في قيادة حرب الاسترداد ولم تثن النصرانية سواء على المستوى المحلي أو الأوروبي.

لقد ضمن سيمونيت كتابه مقدمة طويلة واثنين وأربعين فصلا خصصها لإلقاء التهم دون أساس تاريخي يقول في المقدمة : "إذا كان العرب الذين أخضعوا الشام ومصر وغيرهما من بلاد الشرق لم يستطيعوا أن يدخلوا أية ثقافة ذات قيمة بحكم كون نصارى هذه البلاد أرقى منهم في المستوى الحضاري فإنهم من باب أولى لم يكونوا قادرين على أن يقدموا شيئا لنصارى بلاد المغرب ورثة الحضارة الرومانية" (1)

هكذا ينفي سيمونيت كل تلك التلاحقات الحضارية التي حملها الإسلام إلى الغرب عبر شبه الجزيرة الأيبيرية وبحول ثمانية قرون من التعايش والتساكن إلى سنوات عجاف تبقى بالنسبة إلى تاريخ اسبانيا صفحات دموية قائمة فكانت نظرته نظرة متشائمة لم ير فيها خيرا ينشر ولا فضلا يذكر.

إن منهج سيمونيت في كتابه يعتمد على الخلط والافتراء وتصيد الآراء الضعيفة والمواقف الشاذة وثقافته الإسلامية ضعيفة كما يتبين ذلك من خلال فهمه العقيم لكثير من المسائل والتعاليم الإسلامية التي

يتعرض لها بين الفينة والأخرى أثناء اندفاعه الشديد من أجل الانتصار لموقفه المعادي للحضارة الإسلامية بالأندلس، وعلى نهج خاطئ من الاختلاق والمغالطة يحاول جاهدا رفع من وزن المستعربين وإعلاء شأنهم في التأثير الحضاري والدفع بمسلسل الاستمرارية للحضارة الاسبانية القومية فيقول مغالطا "بفضل المستعربين الأندلسيين عرفت الأندلس الإسلامية العلوم الرياضية والفلكية والطبية التي كان يكرهاها عامة الشعب المسلم والدليل على ذلك أن الكتب التي وصلتنا في الفلاحة والطب وفي غير ذلك من الفنون والحرف كان يقوم عليها في ظل الخلافة الأندلسية كثير من النصارى المستعربين"

1) Simonet : los mozarabes p 44

هكذا يأبى سيمونيت إلا أن ينكر ويغض الطرف عن أسماء مئات من العلماء المسلمين الأندلسيين الذين تفننوا في شتى العلوم والفنون وبرزوا في مختلف الاختصاصات العلمية من طب وهندسة وفلاحة ورياضيات وفيزياء وفلك ويحاول الاستدلال على مقولته بمثال واحد أو مثالين من المستعربين الذين اشتهروا في أيامهم وإن كنا لا ننكر دور هؤلاء في هذه الميادين العلمية فإنه لا يمكن قبول تحيز سيمونيت فهو يحاول أثناء استدلالاته أن ينسب كل تحضر وتمدن إلى مستعربي الأندلس ولا يهتم في ذلك عدم الاعتماد على مصادر تاريخية أصيلة وأسس علمية رصينة غرضه الوحيد هو الحط من شأن الحضارة الأندلسية وتهميش جهود العرب المسلمين ضاربا في التعصب الأعمى والبغض الشديد للإسلام والمسلمين بسهم. وافر وهو في الواقع لا يخرج بهذا عن قناعات المدرسة التقليدية المتشعبة بايديولوجيتها غير أن سيمونيت بعمله هذا ومن حيث لا يشعر قد أسدى خدمات جليلة إلى الحضارة العربية بالأندلس إذ شجعت كتاباته الباحثين الاسبان على الإقبال دون احتراز على الدراسات العربية الإسلامية باعتبار أن الثقافة الإسلامية الأندلسية هي اسبانية قبل كل شيء أي من صنع المستعربين.

- صورة الأنا العربي المسلم الأندلسي في مرآة الآخر صورة قائمة مشوهة الملامح لا تبرز منها إلا النقائص : القبيح منها فقط سطع وإن كان قبحا مصطنعا أما الجميل فقد توارى ونسب للآخر.

إذا كان سيمونيت وجماعة ممن تفننوا في وضع هذه الصورة للأنا عبر تنديدهم بالتواجد الإسلامي في الأندلس فإننا لا ننكر وجود قائمة من المعارضين لهذه الصورة المغلوطة متأسفين على هذا التشويه راسمين صورة حقيقية جميلة للأنا العربي المسلم الأندلسي فما هي تصوراتهم ورؤاهم للتاريخ الأندلسي وما مدى تطابق هذه التصورات مع الواقع التاريخي الذي عرفته اسبانيا خلال ثمانية قرون من التواجد الإسلامي؟

2- موقف أمريكو كاسترو :

يعتبر كاسترو أن الحقبة الأندلسية من أهم أطوار التاريخ الاسباني وأكثرها فاعلية وأن مساهمة العرب والمسلمين في الأندلس كان لها تأثير هام

في إغناء التاريخ الأندلسي بل إن التواجد الإسلامي بالأندلس إلى جوار الممالك النصرانية من أهم العوامل التي دفعت إلى تطور اسبانيا النصرانية ويذهب إلى أن تكوين اسبانيا إنما جاء نتيجة التحدي الحضاري الذي فرضته التجربة الأندلسية فيقول في كتابه "اسبانيا في تاريخها : النصراني والمسلمون واليهود"⁴ كانت اسبانيا في القرون الوسطى نتيجة تأليف بين موقف الخضوع والإعجاب أمام عدو متفوق وراق وأمام المجهود للتغلب على ذلك الموقف الضعيف نفسه" (1)

وفي كتاب له آخر بعنوان "مأساة الشرف في الحياة والأدب الاسبانيين" والذي يعتبر امتدادا لكتابه الأول حاول أمريكو كاسترو أن يؤكد من جديد على الحقيقة التاريخية لاسبانيا متشبها بأرائه الجريئة معلنا أن حب إعطاء التفوق لنصارى اسبانيا على المسلمين واليهود لا يزال اليوم منتشرا في الكتابات التاريخية المعاصرة التي يتناسى أصحابها مكانة المسلمين واليهود في تكوين الطابع الخاص للتاريخ الاسباني وذلك بتركيزهم على "عراقة الدم" وأهمية "الشرف الاسباني" وكل هذا انطلاقا من فكرة "الاستمرارية غير المنقطعة" لاسبان في تاريخهم العريق" (2)

وهكذا لم يعتبر كاسترو الوجود العربي الإسلامي في اسبانيا وجودا برانيا عن هذا البلد ولا عن هويته وكيونته وتاريخه وبعبارة واحدة عن وجوده بل اعتبره الحادث الأساسي في انطلاق وتحقق هذا الوجود فلا يمكن بالنسبة إليه الحديث عن اسبانيا وتاريخها قبل سنة 716/92 لقد بدأ تاريخ اسبانيا مع بداية وجود العامل المنتج لهذا التاريخ وهذا العامل هو انتشار الإسلام بشبه جزيرة ايبيريا وبين أجناسها. فلقد قامت أجناس متعددة ومختلفة على هذه الأرض إلا أن ذلك لا يكسبها صفة الشعوب الاسبانية فالأسبنة hespanidad ليست ماهية مجردة ولا معطى أزليا بل هي انجاز تاريخي جاء نتيجة تغلغل الإسلام باسبانيا ونتيجة تعايش واحتدام الثقافات الثلاث بها واحتدامها لذلك عمل

(1) أنظر العتيبي سهل بن رفاع في مداخلة بعنوان "موقف أئمة السلف من تقريب كتب المنطق والفلسفة ألقاها ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الخامس : إسهام العلماء والمعلمين في الحضارة العالمية : 8-9-10 مارس 2005 جامعة المينا كلية دار العلوم - مصر .

2) Simonet : les muzarabes pp 45- 46

كاسترو على إبراز خصوصيات الثقافة الإسلامية بمعناها الواسع في اللغة (معجما وتركيبا ودلالته) في الحياة الاجتماعية (أنماط العيش - العادات) ⁽¹⁾

لقد أراد كاسترو أن يتجاوز النظرة المشبعة بالمشاعر العرقية والدينية النصرانية باعتماد تصور للتاريخ مغاير للتصورات التي سبق أن عرضنا لآلياتها ومركزاتها في العنصر السابق هذا التصور أراد أن يكون في إطار علاقة اسبانيا بأوروبا من جهة وبالأندلس والشرق من جهة أخرى واعتبر أن وجود الأندلس إلى جوار الممالك النصرانية من أهم العوامل التي أثرت في تطور الاسبان النصارى ⁽²⁾ فقد كانت الحضارة الأندلسية تحديا لاسبانيا فالمسلمون جاؤوا إلى الأندلس يحفزهم مصدرا قوة يثيران الإعجاب هما الوحدة السياسية وحماسهم العظيم لذلك الدين الناشئ وخطوا خطوات واسعة على طريق التقدم والرقي

وقد كان تقدمهم يتم بصورة تلقائية تعضدهم في معاركهم خلفيتهم الدينية والسياسية بل وحملوا معهم إلى البلاد التي فتحوها شذى وعبيرا أفضل مما في ثقافة الأقدمين ⁽³⁾ وما لبثوا إلا قليلا حتى أعادوا نبض الحياة إلى تلك الثقافة الكلاسيكية ⁽⁴⁾ : ويعرض كاسترو أهمية التاريخ الإسلامي في تكوين الشخصية الاسبانية فيقول : لقد بدا لي بوضوح أن العصور الوسطى النصرانية كما لو كانت المهمة الأساسية لأهلها تكمن في محاولة الجماعات النصرانية الاحتفاظ بوجودها في مواجهة عالم بدا لها خلال تلك الحقبة متفوقا وعظيما في كل مجال من مجالات الحياة، لقد اعتنق النصارى كثيرا من قيم ومعاملات المسلمين سواء أكانت تلك القيم والمعاملات مادية أو إنسانية، لكنهم لم يتشربوا الأنشطة

(1) عيسى محمد محمد : أثر علماء الأندلس في علم مقارنة الأديان مداخلة أقيمت ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الخامس : إسهام العلماء والمعلمين في الحضارة العالمية : 8-9-10 مارس 2005 جامعة المينا كلية دار العلوم - مصر .

(2) Moros y Judios - 1948 cristaria, Americo castro : Espana en su historia, (2

(3) مع ان كاسترو لا ينكر وجود علامات تحضر ثقافي شهدتها اسبانيا خلال العصر القوطي ويشير إلى وجود ايسيدورو الاشيلي

4) Americo castro : Espagne en su historia p 47

المنتجة لهذه القيم أو المعاملات وذلك لأنهم كانوا في الوقت نفسه مجبرين على خلق قيم ومعاملات مضادة لها لعلها تمكنهم ذات يوم من الانتصار أو التفوق على المسلمين" (1)

يقرّ كاسترو أن اسبانيا العصور الوسطى ليست إلا نتاجا وحصيلة لذلك التزاوج بين الإحساس بالخضوع. والإعجاب بعدو متفوق يسمو عليهم من جهة وبين الجهد الذي يجب أن يبذل لتخطي هذا الوضع والارتفاع فوق هذا الإحساس بالدونية من جهة أخرى

كان الأنا في نظر كاسترو هو المتفوق وهو الذي حدد كينونة الآخر وهويته فالعربي المسلم أثر في حضارة أوروبا وفكرها وعلمائها ونهضتها بصفة عامة وفي الفكر الحضاري الاسباني بصفة خاصة لقد كان نصيب الأندلسيين في الجهد الموسوعي الهائل الذي يتألف منه الأدب العربي سواء كان ذلك في مجال العلوم الدينية أو اللغوية ضخما ويتجلى ذلك الإشعاع الحضاري الحقيقي الذي أورثته اسبانيا العربية لاسبانيا النصرانية في جملة الاستعارات التي اقتبستها اللغة الاسبانية من اللغة العربية وهي أكثر الأدلة إفصاحا على السيادة الثقافية للدولة الإسلامية سيادة لا جدال فيها.

إذا كنّا قد قدّمنا نموذجين من الإستشراق الاسباني ينكر الأول مساهمة العرب المسلمين في هذه الحضارة الإسلامية العربية على أرض اسبانية ويشيد الثاني بمجهودات العرب المسلمين ويعتبرهم مؤسسي هذه الحضارة فلا بدّ من إبداء الرأي خاصة وأن الموضوع أصبح يمسّ الهوية العربية الإسلامية مبتعدين بطبيعة الحال عن كلّ ذاتية فلا يوجد من يشك حسب رأينا في دور الأندلس الحضاري حيث شهدت الحياة الاجتماعية بقرطبة وطليطلة وغرناطة نهضة ثقافية أصيلة بشهادة المستشرقين الصادقين والمؤرخين العقلاء حيث حققت الخلافة الأموية بشكل عام بالأندلس أوج ازدهارها من الناحية العلمية والأخلاقية وحسب المؤرخين فإنّ مدينة قرطبة التي ظلت عاصمة الأندلس حتى

(1) انظر كتابه : حضارة الإسلام في اسبانيا : دراسة تاريخية مقارنة في اللغة والأدب. والسير الذاتية ترجمة وتعليق سليمان العطار ط - دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1983 : 1
op. cit.. p 48

بداية القرن الثالث عشر أكثر المدن سكانا وأغناها ثقافة ولقد حققت أكبر أمجادها في مجال الإبداع الثقافي حيث ازدهرت كوكبة من العقول الفذة في مجرى الفكر والأدب⁽¹⁾

ومما لا شك فيه أنّ المسلمين شاركوا في بناء هذه الحضارة الإنسانية وأزكوا بنشاطهم الذي لم يعتره كلل ولا ملل شعلة فكرية أنارت أوروبا وهدتها الى طريق المعرفة فتجلّى تعاون الثقافتين العربية والافرنجية بشقيها اللاتيني والعبري في القرن 12/6 ونشطت حركة الترجمة والتأليف لنقل التراث الإسلامي واليوناني.

"في تاريخ اسبانيا الاسلامية" ترجمة د. محمد رضا المصري ط 1 شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت 1996

واتجهت أوروبا إلى الأندلس ببعثاتها من كلّ البقاع ليتعلموا على أيدي الدارسين المسلمين شأنهم في ذلك شأن العرب واليهود والنصارى الاسبان، إذ كانوا يتعلمون اللغة العربية ليتلقوا بها شتى فروع المعرفة.

ولا بدّ هنا من التذكير أنّ مسلمي الأندلس وليس مستعربهم كما يدعي سيمونيت - كانوا صانعي تمازج رائع بين الثقافات مكن المسلمين واليهود والنصارى بالرغم من بعض الصّراعات التي لا شك أنّهم عرفوها في بعض الأحيان من أن يصنعوا يدا في يد تلك الحضارة العالمية المتميزة لذا يجب أن تمثل التجربة الأندلسية بالنسبة إلينا درسا في التمازج الثقافي والإبداع والتعايش ذلك التمازج والتفاعل الذي مكن أناسا من أعراق وديانات مختلفة من بناء حضارة مشتركة ومن أن يعيشوا جميعا مغامرة رائعة في جوّ من التسامح وأن يترفعوا عن كلّ صراع، أنّه من الممكن اليوم استخلاص عبر مختلفة من تلك التجربة قصد جعل حدّ للصراعات والنزاعات التي يعرفها عالمنا المعاصر.

وإذا كان الأمر كذلك فلم يبق لنا إلا أن نطرح سؤالا على أنفسنا إذا كان المسلمون قد قدموا لنا هذا المعجم الفريد في شتى ميادين المعرفة والذي أضاءوا به الدنيا، فماذا قدّمنا نحن لأجيالنا القادمة؟؟؟

(1) Montgomery watt : في تاريخ اسبانيا الاسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، طبعة 1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،، بيروت 1996 مونتغمري وات

خاتمة :

وان كان عنوان المداخلة يوحي بأننا سنرصد كل الوجوه الممثلة للاستشراق الاسباني فإن ذلك لمن الصعب جدا وعرضه يتجاوز المدة الزمنية المخصصة لهذه المداخلة لهذا كان من الأنسب التعرف على عينة منها من خلال تجلية الخطوط العريضة العامة لمواقفهم تجاه التجربة الأندلسية تلك المواقف التي تباينت بين السلب والإيجاب إلا أن الاتجاه الثاني يكاد يطغى على الأول خاصة إذا علمنا أن عقلاء الباحثين الاسبان اليوم قد أصبحوا يعملون من أجل مصالحة اسبانيا مع نفسها وتجاوز عقدة التعصب ومن ثم الازعان للحقيقة لأن الحضارة العربية الأندلسية لا تزال تعيش في وجدانها وذاكرتها وتقاليدها وتراثها الشعبي ولغتها.

ولئن صادفنا في هذه الدراسة نموذجا من تيار استشراقي متعصب حرص على عدم تناول الحضارة الأندلسية باعتبارها وحدة حضارية متكاملة تتجلى من خلالها التجربة الأندلسية وضاءة ومضيئة فلا ريب أن التيار الايجابي المقابل كان له دور كبير في التعريف بتلك الحضارة وإقناع أتباع التيار الآخر بأنها كانت ضرورية وإيجابية لفهم أعمق لطبيعة السير التاريخي لاسبانيا ونموه، تلك البلاد التي عرفت كيف تعيد إلى إسلام الأندلس ألقابه في مراتب الشرف فاعترفت وهي مرفوعة الرأس منذ سنوات عدة بأنه يعتبر زهرة في تراثها التاريخي والفكري، ولم تبخل بالاحتفال بزهو بمرور ألف عام على تأسيس الخلافة الإسلامية في قرطبة أو من إحياء ذكريات كثير من علماء الأندلس وفلاسفتها ذلك أن الأندلسيين كما يقول أمريكو كاسترو - هم الذين كونوا أول شعور وطني في اسبانيا وأنه لولاهم لما أصبح لإسبانيا أي تميز أو خصوصية يعليان من شأنها بين الأمم ليس في تاريخها الوسيط فحسب بل في تاريخها الحديث أيضا.

ان كاسترو بهذا الاعتراف يخرج عن بوتقة المستشرقين والاستشراق والذي ما ان تسمع هذه الكلمة حتى يتراءى الى الذهن ذلك الصّراع بين العالم النصراني الغربي في القرون الوسطى وبين الشرق الاسلامي على الصعيدين الديني والايدولوجي لذا يتحفظ كثير من الاسبانيين الذين تناولوا ويتناولون

مختلف تمظهرات الوجود العربي الاسلامي بشبه جزيرة ايبيريا حول تأطير مجهوداتهم ضمن مجهودات الاستشراق والمستشرقين ومرجع ذلك الى ما التصق بهاتين المفردتين في الذاكرة العربية والغربية من معاني قدحية وهم في تحفظهم لا يعدمون اعتبارات ذاتية وموضوعية وجبهة تسوّغ لهم امكانية ذلك، فالمستشرقون الاسبان لم يهتموا الا نادرا بالشرقين الوسيط والأقصى عند اهتمامهم بالحضارة العربية والاسلامية، ومن هنا فهم مستعربون ولكن يجب أن ننبه هنا الى أهمية التفرقة بين هذا التعبير الذي استخدمته في ترجمة معنى الكلمة الاسبانية los arabistas باعتباره مصطلحا يشير الى الباحثين في مجال الدراسة العربية وبين المصطلح التاريخي "المستعربون" والذي شاع استخدامه في الكتابات التاريخية للدلالة على النصارى الأندلسيين الذين عاشوا في المجتمع الأندلسي وتشبعوا بعباداته وتقاليده، وتحدثوا لغته حتى أصبحوا جزء من نسيجه العام وهؤلاء يطلق عليهم في اللغة الاسبانية اسم los Mozarabes وحتى لفظ مستعربين لا يعبر عن هؤلاء الدارسين تماما لأنهم لم يهتموا بالحضارة العربية الا فيما يتعلق بتمظهراتها بشبه جزيرة ايبيريا، وان تناول بعضهم فكر "الغزالي" أو تراث "ابن سينا" فلقد تمّ ذلك على سبيل البحث عن تأثرهما بالفلسفة اليونانية وتأثيرهما في "ابن طفيل" و"ابن رشد" وهذه مسألة لها دلالة كبرى الا أنها تصبّ في صلب منهجية الاستشراق التي تؤرّخ للأفكار بواسطة التأثير والتأثر، ومن هنا نقترح أن يسمّى أصحابنا "بالمأتأندلسين" نسبة الى "أتأندلس" الشخص أي طلب "الأندلس"

قائمة المصادر والمراجع :

1- المصادر :

- Americo castro : Espagna en su historia «cristianos «Moros y Judios - 1948
- Americo castro : le drame de l'honneur dans la vie et dans la Littérature espagnoles du XV siecle. Paris 1965
- Simonet. Historia de los mozarabes de Espagna. Madrid (1897-1903)

المراجع :

- خليل (أحمد خليل) : الاستشراق "مشكلة معرفة أو مشكلة الاعتراف بالآخر" مجلة الفكر العربي عدد - 31 - 1983.
- السامرائي (توفيق) "دور العرب المسلمين في الأندلس في إيصال الطب إلى أوروبا" ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الخامس وإسهام العلماء المسلمين في الحضارة العالمية : الذي نظمته جامعة المنيا كلية دار العلوم مصر أيام 8-9-10- مارس 2009.
- الشكعة (مصطفى) المغرب والأندلس : افاق اسلامية وحضارة انسانية ومباحث أدبية ط 1. دار الكتاب المصري - القاهرة 1987
- العنيني (سهل بن رفاع) في مداخلة بعنوان "موقف أئمة السلف من تقريب كتب المنطق والفلسفة ألقاها ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الخامس : إسهام العلماء والمعلمين في الحضارة العالمية : 8-9-10 مارس 2005 جامعة المنيا كلية دار العلوم - مصر.
- عيسى (محمد محمد) : أثر علماء الأندلس في علم مقارنة الأديان مداخلة أقيمت ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الخامس : إسهام العلماء والمعلمين في الحضارة العالمية : 8-9-10 مارس 2005 جامعة المنيا كلية دار العلوم - مصر.